البيئـــة الروائيــــة

يمثل الفضاء المكاني والمجال الزمني ركناً مهمَّاً في البناء الروائي نجد نجيب الكيلاني، وبخاصة في مرحلته الواقعية الرسلامية، حيث يُعطي كل من المكان والزمان دلالاتٍ تُسهم في بلورة الرؤية الروائية - إن صحّ التعبير - للشخوص والأحداث، وفهم القضايا الإنسانية التي يعيشها المجتمع، ويتفاعل معها، وينطلق من خلالها إلى تصور المستقبل أو الحلم به..

وإذا عرفنا أن الكاتب قد ارتبط بقريته (شرشابة) التي تقع في أعماق محافظة الغربية، ارتباطاً وثيقاً، مع أنه اغترب عنها عُمراً أطول من عمره الذي عاشه فيها، سواء بالعمل في القاهرة أو في الخليج، فإننا لن نستغرب أن تكون القرى التي جرت فيها حوادث رواياته الأربع (كفر أبو سالم - كفر علام - الربايعة - شنراق..) هي قرية (شرشابة) بصورة وأخرى، ولم يخف الكاتب أنها تقع في محافظة الغربية، وأنها قريبة من مدينة طنطا، وفي ذلك ما يعني أنه يتكئ على مكان مألوف لديه، خبرته به واسعة وشاملة، ولعل هذا ما جعله يقدم لنا القرية تقديماً جاهزاً دون أن يسهب في وصفها أو بيان معالمها، فهو يقدمها كأنها مألوفة لدينا نحن أيضاً ونعلم بيوتها وشوارعها وأشجارها ومسجدها وحقولها ومواشيها...

ومع أن القرية تبدو بسيطة منزوية في وسط الدلتا،

وينتمي إليها معظم شخوص الروايات، إلا أنها حاضرة حضوراً قوياً في اللغة وطريقة التفكير والصورة التي يتعامل بها هؤلاء الشخوص.. وهذ الحضور القوي ينبئ عن دلالة أخرى للقرية حيث تصبح رمزاً عاماً للوطن أو الأمة كلها بأهلها وناسها وهمومها وعذاباتها وصراعاتها وطموحاتها..

إن الذين يقابلوننا في القرية عادةً هم من البسطاء الفقراء الباحثين عن لقمة العيش أو التواقين إلى العدل والإنصاف أو الحالمين بالإصلاح وتصحيح الانحرف لأن ذلك يمثل ضرورة لهم على المستويين الشخصي والجماعي (عبد المتجلي القصاص أو الشيخ محمد مثلاً) حتى (أبو الفتوح الشرقاوي) المتقمص لشخصية العارف بالحقائق المتفوق على بقية أقرانه الذين لا يعرفون شيئاً، كان يحلم بالخروج من دائرة «الدونية» التي يحيا فيها آملاً في مستوى أفضل.

وفي القرية لن تجد فارقاً كبيراً بين الشخوص، فهم ينتمون إلى مستوى متقارب نفسياً واجتماعياً وروحياً على الأقل، حتى العمدة الذي يكون عادة أعلى مستوى مادياً واجتماعياً، فإن أعماقه مرتبطة بمجموع البسطاء الفقراء من مشاركتهم مشكلاتهم ومناسباتهم، وإذا كان العمدة يبدو غالباً رمزاً للغطرسة والقهر، فإنه لدى «نجيب الكيلاني»

يتحول في بعض الأحيان إلى صفوف المعارضة، والانتماء لجمهور الناس لأن ضميره الديني يجعله ينحاز إلى الحق والعدل، كما نرى عمدة «ملكة العنب». وبصفة عامة، فإن حضور القرية في روايات الكيلاني يجعلها مسرحاً للمجتمع الإسلامي وشخوصه وحوادثه، مما يعني أن القرية تمثل صورة للأمة في حال تواضعها وهمومها ومشكلاتها، وفي حال تمردها على الظلم ورغبتها في الإصلاح وإرادتها في مواجهة القوى القاهرة..

ولأمر ما، كان الأبطال المتمردون المصلحون الثائرون من القرية، وكان رموز الظلم والقهر والفساد من المدينة.. ولذا كانت القرية في مواجهة المدينة.. من القرية خرج عبد المتجلي للبحث عن الونش «لم يعد يتصور أن بالمدينة رجالاً، فجاء من أعماق الريف حاملاً سيف الإرادة الخرافية ليبحث عن المفقود، ويفضح المستور، ويكشف عن وجه المدينة القبيح...»[1] ومن القرية أعلن الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد عما يرتكبه زراع العنب في الربايعة من إثم وتقصير بعدم إخراج الزكاة... وكان الشيخ محمد وأهل القرية قوى التصدي لجبروت السلطة وطغيانها، بل إن «أبو الفتوح الشرقاوي» اللص الكذاب،

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٣٠.

يتحول إلى ضحية مظلومة، ومن ثم إلى رجل صالح يسعى إلى الخير ومقاومة الشر.

إن القرية تظل تحت كل الظروف رمزاً للأمان والطمأنينة والسماحة، مع كل ما يحدث لأهلها من مظالم وتعاسة، في مواجهة المدينة رمز الخوف والرعب والأنانية. ولنتأمل ذلك الحوار الذي يجري بين «أبو الفتوح الشرقاوي وامرأته، بعد أن اختفى عن عيون الذين يطاردونه في القاهرة:

همس:

– فيم تفكرين يا عبيطة؟.

– بيتنا الصغير في القرية..

– ليس فيه ما يساوي نصف فرنك..[١]

– فيه الخير كله..

– إن ما يحز في نفسي يا قطيفة هو ترك الحمار وحده.. سيموت من الجوع.

---

(١) نصف الفرنك كان عملة معدنية سائدة في مصر إلى ما قبل عقدين من الزمان تقريباً، وكان أيامها يساوي قرشن، وقد اختفى الآن مع عملة القرش ذاتها التي ظل لها وجود اسمي فقط.

- لن يتركه الجيران بدون أكل.. لكن

- ماذا؟.

- دائماً أخاف من البندر.

- نحن في المحروسة يا هبلاء.

- الناس فيها غير الناس في قريتنا.

- كلهم خلق الله.

- وخلق الله ليسوا سواء... أشعر أنهم بشر غيرنا يا أبو الفتوح.. أصبحت أكره كل من يلبسون البدلة.

- كانوا يضربونك دون رحمة..

- غلطانة!! أصحاب البدل يصدرون الأوامر.. والمخبرون يضربون.. وهم يلبسون الجلابيب مثلنا.. ثم هؤلاء الذين أنقذونا وأتو بنا إلى هذا المكان.. إنهم يلبسون البدل.. اللبس ليس كل شيء.. هزت رأسها قائلة:

- عندك حق....[١]

وهذا الحوار ينبئ عن خوف دفين لدى الريفي من

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي ١٠١/١٠٢.

المدينة، وأهلها الذين يلبسون «البدل» ويضربون البسطاء والمظلومين، وهو من تلحّ عليه «قطيفة» من كلامها مع زوجها «أبو الفتوح» وتعبر عنه بأكثر من صورة دائماً أخاف من البندر و«الناس فيها غير الناس في قريتنا» «وأشعر أنهم بشر غيرنا» وكانوا يضربونك بلا رحمة»، ومع أن زوجها يحاول أن يكون موضوعياً أو عادلا في حكمه على أهل المدينة، إلا أنه يبدي انزعاجه وخوفه على «الحمار» الذي تركه وحيداً في القرية، لكن «قطيفة» تعلن أن الجيران لن يتركوه بدون أكل، وقبل ذلك تعبّر عن تمسكها ببيتها الخاوي في القرية، كأنها تقول: إن البيت الخاوي الذي (ليس فيه ما يساوي فرنك) ممتلئ غنى بمشاعر الجيران والناس هناك، فأهل القرية متضامنون متكافلون حتى مع الحيوانات، فهم لن يتركوا الحمار بدون طعام أو شراب. أما أهل المدينة فلهم شأن آخر (لا أحد يهتم بأحد، ولا يفشي واحد منهم السلام، والفتيات الجميلات يبتسمن بدون سبب واضح، والنظرات الوقحة تلاحقهم (كذا؟)، وكلمات بذيئة تتطاير هنا وهناك يصعب معرفة مصدرها. والسيارات تتسابق في جنون...[1].

وصورة المدينة بصفة عامة، والقاهرة بصفة خاصة،

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٢٣.

توحي بالضيق والإنزعاج والقهر والضياع، مثل شوارعها التي تملتئ بالصياح والباعة والعربات والحافلات والضجيج والأصوات المتنافرة[1]..

وكل شيء في المدينة له ثمن، لأنها بلا قلب ولا عاطفة «حتى قضاء الحاجة أصبح له ثمن، وأين؟ في أقدس الأمكنة..»، و«هذه المحروسة كل شيء فيها يباع ويشترى، ولا مكان للفقراء إلا العمل أو السرقة»[2].

ولكن المدينة تبدو في بعض الأحيان مطوية على بعض الخير «المحروسة ليست فساداً كلها، لكنها تطوي قلبها الحنون على الكثير من الخيرات والحنان...»[3].

إن المدينة تبدو لأبطال نجيب الكيلاني محط العذاب والتناقضات، والخير والشر، وذات ألف وجه ووجه، ولكن الخير فيها يرتبط بالبسطاء. وبأماكن العبادة ففي المساجد يجد الأبطال الإحساس بالراحة والاطمئنان، ويجدون هناك من الشيوخ والصحاب ما تهون بصحبتهم مشكلات الحياة ومصاعبها، وكان عبد المتجلي مثلاً عندما تضيق به

---

(١) تأمل تصوير الكاتب لميدان السيدة زينب وما يجري فيه: امرة عبد المتجلي ١١٦.

(٢) اعترافات عبد المتجلي، ٣٥.

(٣) السابق، ٣١.

السبل يقصد مسجد السيدة زينب هرباً من المتاعب أو سعياً لحل مشكلاته، فيجد عند صديقه «بيومي» عامل النظافة الأنس والمودة والمكان الذي يأويه (على سطح المسجد)، وإن لم يمنعه ذلك من انتقاد المدينة وما يسودها من قيم والتهكم عليها وعلى أهلها:

«هل ما زال دخول المرحاض عندكم برسوم؟.

ضحك بيومي، وأخذ يتحسس لحيته ويقول:

- ارتفعت أسعار كل شيء.. [1]

ومع مظاهر الخير في المدينة التي تبدو محددة ومتواضعة، تبقى الصورة العامة قرينة الشرّ والفساد، وموطن المافيا التي تتحكم في مصائر الناس، وتمارس الفجور والانحلال وامتصاص دماء الفقراء والمطحونين، وها هو عبد المتجلي يصف اجتماعاً للتجار الكبار في المدينة الإقليمية «لقد رأى في الحفل الساهر الذي شهده، أمارات التفسخ والفساد جهاراً، سمع بأذنيه ورأي بعينيه مجموعة من المتآمرين يستغلون الفرصة للإثراء وتكديس الأموال بشتى الوسائل والحيل، آلمه أشد الألم أن يتصرفوا وكأنهم أصحاب الرأي والأمر، وكأن الشعب رعية ذليلة تدين له بالطاعة والولاء، ولا يجرؤ أحد أن يرفع رأسه

---

(١) امرأة عبد لمتجلي، ١٥٢ وما بعدها.

ويقـــول لهم: هذا ظلم.. هذا حـــرام، والكارثة أن ممثلي السلطة يحـتـــرمـــونهم، وييـــســـرون لهم ســـبـيـل النهب، ويحرسونهم من الاعتداء أو حتى النقد البريء، بل إن نسبة كـبـيـرة منهم أعـضـاء في المجـالس الشـعـبـيـة والبـرلمان، والبعض الآخر يحتل مناصب رسمية.. الخ»[1].

هكذا تبدو المدينة رمزاً لكل الرذائل والكوارث، ومصدراً للمصائب والنكبات، لذا نجد الشخوص في روايات نجيب الكيلاني تتعامل معها من الخارج، لا ينغمسون فيها غالباً إلا إذ كـانوا من الانتـهـازيين أو المتـسلقين أو الجـلادين أو المنحـرفين.. إن العناصـر الخـيـرة في المدينة تبـدو قليلة ومنزوية وزاهدة ومثالية كما نرى في شخوص الروايات..

أما القرية أو الريف، فيبقى رمزاً للطيبة والسماحة والأمان، وإن كانت تظهر على صفحته سلبيات التحول الاجتماعي والتغييرات الفكرية التي تصدرها المدينة أو تتسبب فيها.. وفي الوقت ذاته يظل أشرار الريف أقل خطراً من أشرار المدينة أو انحراف المنحرفين القرويين محدوداً بالقياس إلى نظرائهم في البندر.

إن المكان في روايات نجيب الكيلاني التي بين أيدينا محدود ومعاصر لنا.

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ١٥٢ وما بعدها.

فهو يتناول فترة قصيرة تتراوح بين شهور (كما في ملكة العنب، وقضية أبو الفتوح الشرقاوي) وسنتين أو أكثر قليلاً (كما في اعترافات عبد المتجلي، وامرأة عبد المتجلي).

والفترة الزمنية الروائية تدور في أواخر الثمانينات بالنسبة لروايات ثلاث (اعترافات عبد المتجلي، امرأة عبد المتجلي، ملكة العنب) وفي زمن الحرب العالمية الثانية بالنسبة لرواية (قضية أبو الفتوح الشرقاوي).

وقصر الزمن الروائي في الرباعية له تأثيره في بنائها، حيث جعلها مركزه أو مكتنزة، لا مكان فيها للحشو أو الفضول، فضلاً عن كونه أعطاها عنصر الحيوية والتشويق في ظل وجود كمٍّ كبيرٍ من الأحداث والمواقف...

أما معاصرة الزمن الروائي فهي سلاح ذو حدين، ويستطيع الكاتب الموهوب أن يستخدمه استخداماً جيداً ليعالج قضايا مجتمعه الراهنة من جهة، وفي الوقت ذاته يبث الحياة في شخوصه أو أبطاله ليكونوا نماذج إنسانية حية تعيش طويلاً من جهة أخرى، وهذا ما نجح فيه نجيب الكيلاني إلى حد كبير، باستثناء بعض الثرثرة السياسية التي كان يغالبها في بعض المواضع[1].

(١) انظر على سبيل المثال وصف عبد المتجلي لحفل التجار الذي أشرنا إليه قل قليل: امرأة عبد المتجلي، ١٥٢/١٥٣.

أما إذا اكتفى الكاتب بمعالجة الأحداث المعاصرة دون احتفال ببقية العناصر الروائية، فإن عمله يبقى محدود القيمة، لأنه مرتبط بفترة معينة، تتغير بعدها الظروف والأحداث، ولا يبقى منه إلا الذكرى التاريخية التي لا تمثل شيئاً بالنسبة للقارئ، حيث تكون الظروف الجديدة قد غيرت الظروف السابقة عليها أو عدلتها[1]... أما النموذج الإنساني الحيّ الذي شارك في الأحداث، فيبقى حياً دائماً في النفوس والقلوب التي تتلامس معه أو تلتقي به.

ولا ريب أن الفترة الزمنية المعاصرة حافلة بالكثير من الأحداث التي تحيط بنا وتضغط علينا بسلبياتها الكثيرة.. والعديد منها قد يدخل في دائرة المتغيرات، ولكن أهمها هو الذي يتعلق بحركة الإنسان وقيمته الإنسانية، وهو ما يكتسب قيمة مستمرة لا تهبط بتغيير الظروف والأحوال.

فحرية الإنسان وحقه المشروع في الاعتقاد قدرته على الاختيار ومقاومته للظلم والتوحش ورفضه للقهر والتعذيب، أمور ليست مرتبطة بعصرٍ دون آخر، ولا وطن دون غيره، ولا إنسان دون سواه، بل هي أمور إنسانية عامة ذات أهمية في كل زمان ومكان.. ومن هنا فإن التصدي لها فينا يمثل اختياراً موفقاً.. إنّ شكوى الفلاح المصري القديم، المعروفة

---

(١) محمد يوسف نجم، فن القصة، ط٧، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٥٦.

باسم شكوى «الفلاح الفصيح» تمثل حتى اليوم رمزاً للمواجهة الجريئة الشجاعة التي يحلم بها كل المظلومين في أنحاء الدنيا.. تُرى هل كانت حيويّة الموقف أو فصاحة الفلاح أم كلاهما معاً وراء الخلود لهذه القصة.؟.

لقد ركز نجيب الكيلاني على قضايا الإنسان الحيوية المعاصرة، فاحتشد لها وحقق بذلك انحيازه لمجتمعه وقضايا، ثم أعطى لفنه نفحة من الحياة المستمرة بحيث تجد فيه الأجيال التالية ما تبتغيه من الفن الجيد.

إنّ اختيار الزمن المعاصر أو الفترة الراهنة مجالاً روائياً، كان له تأثيره على سياق الأحداث، بحيث صار الزمن الروائي زمناً تصاعدياً ومطرداً، يسير على نسق متتابع، ليتناغم مع تسلسل الأحداث المتلاحقة، ونادراً ما نجده يتقهقر إلى الماضي أو يعود إلى تايخ الأشخاص عن طريق التذكر، أو ما يسمى بلغة السينما (الفلاش باك)، كما نرى مثلاً عندما تتذكر «براعم» من «ملكة العنب»، مرحلة الطفولة والتلمذة التي كان لها تأثيرها على حياتها ومسيرتها، ولكن الزمن الروائي يظل بصفة عامة، زمناً تصاعدياً مطرداً يؤكده ضمير الغائب الذي يسود الروايات في عملية السرد التي انتهجها الكاتب.

وقد يثور سؤال حول دلالة الزمن الذي اختاره لروايته

«أقوال أبو الفتوح الشرقاوي»، وهو زمن الحرب العالمية الثانية؟.

ويبدو لي أن الكاتب لم يهرب من أيامنا، بل لم يغادرها على الإطلاق. صحيح عاد إلى الوراء ما يقرب من خمسين عاماً كانت الدنيا فيها غير الدنيا، والنظام غير النظام، ولكنه أراد بطريقة ما أن يخبرنا أن المضمون لم يتغير، وأن الحوادث هي هي.. فأهل الريف الفقراء المطحونون (عصب المجتمع) مازالوا كما هم، والطبقة العليا تعيش الفساد والانحلال والمظاهر الخادعة، وقهر السلطة للناس لن يغير، والصراع بين الخير والشر، والصلاح والفساد باقٍ ومستمر...

إن زمن الحرب العالمية الثانية يوازي الزمن الراهن بطريقة ما ويتيح للكاتب فرصة أفضل لتقديم شخوصه وأحداثه بما يمنع التأويل والإسقاط على أشخاص معاصرين أو أحداث قريبة فيما لو جعل زمنه معاصراً لنا، قريباً منا.

وعلى مستوى آخر، يبدو الزمان الراهن بصورة ما قريناً للمتاعب والمفاسد والمجهول، ومن هنا تتبدى حالة الهجاء الملحوظة للزمان وأهله في السياق الروائي، بل يتحول الزمان إلى رمز للسلبيات بصفة عامة على لسان عدد من شخوص الروايات الطيبيين فها هو أبو المجد شاهين، الرجل الصالح، يتمتم قائلاً لزوجته.

«لا يعلم الغيب إلا الله.. هذا زمان الغموض والضلال[١].

والعمدة الطيب يتحدث إلى زوجته مفضياً إليها بهمومه، فيقول مقارناً بين الماضي والحاضر:

«كثيراً ما تحدثني نفسي، بأني غير قادر على حمل المسؤولية، ويبدو لي أني لم أخلق لهذا الزمان... في الماضي كان كل شيء يسير على ما يرام.. لم تحيرني جريمة، ولم يستعص عليّ لغز، أما اليوم فقد تحوّل الناس إلى شياطين.. يحبكون جرائمهم.. ويزوّرون كل شيء، وبرعون في تضليل العدالة»[٢].

وكما نرى في أقوال العمدة، فإن الزمان يصير مرادفاً للمجتمع أو لأهل العصر أو للناس الذين تحولوا إلى شياطين في حبك الجرائم والتزوير والتضليل... أي تحولوا إلى مجرمين محترفين أذكياء..

وهناك بالطبع أسباب لهذا التحول نستطيع أن نستشفها عبر الروايات متمثلة في الظلم والقهر وتلفيق القضايا ومحاربة التدين والاعتماد على المنافقين

---

(١) ملكة العنب، ٣٢.
(٢) السابق، ٣٣.

والوصوليين في إدارة شؤون الناس، ثم أجهزة الدعاية التي تخفي الحقائق وتنشر عكسها.

«هذا زمن التمثيل والتمثيليات. لقد تربع التلفزيون على العرش.. آه يا دنيا السلبيات والأكاذيب»[١].

وهكذا يبدو هجاء «الزمان» متناغماً مع اختيار «الزمن المعاصر» مجالاً للبناء الروائي، حيث يحفل هذا الزمن بالكثير من المتاعب والمفاسد والمجهول..

إن البيئة الروائية في روايات نجيب الكيلاني (مكاناً وزماناً) تحقق مجالاً رحباً للواقعية الاسلامية التي ينتهجها المؤلف، وتتناغم مع المعطيات التي طرحها عبر الشخوص والأحداث لتبشر بمكانٍ (مجتمع) جديد، وزمان (عصر) جديد، تولد فيها قيم الحق والعدل الأمان، وترفرف عليها رايات الإسلام، أساس هذه القيم وصانعها.

---

(١) نفسه ٤٦.